سورة هود

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

[هود: ٧٠-٧١]

كان عدم مد الضيف يده إلى الطعام المقدم إليه من قبل مضيفه علامة تنذر بسوء نية الضيف وسوء نية الزيارة حسب تقاليد وأعراف ذلك الوقت. والحقيقة أن الرسالة التي أتى بـــها الضيوف كانت غريبة ومذهلة ولا سيما لنبي حليم وأواه مثل إبراهيم عليه السلام. صحيح أن الضيوف كانوا ملائكة ولم يكن الأكل والشرب من طبيعتهم لذا نراهم يخففون وطأة المفاجأة باسلوبـــهم الملائكي وتقديم أسباب الزيارة بشكل تدريجي ومناسب مع اللقاء الذي بدأ بالسلام المتقابل من الجانبين. عاش إبراهيم عليه السلام لحظات خوف من الإيماءات والإشارات التي تلقاها ولاحظها، وكان هذا نتيجة لفراسة النبوة وتأويل الأحاديث. فقد أحس -بأفق المعرفة التي يملكها- أنّ أحداثا غريبة ستحدث، لذا سرت مخافة بعيدة عن الرعب في أوصاله. وبعد لحظات تخلص من دهشة الصدمة، وحل المنطق النبوي محل المشاعر الثائرة، وبدأت صفة الحلم والسلم عنده تعبر عن نفسها في الكلام والخطاب ولكن بعد أن عاش لحظات البداية كما ذكرنا آنفاً.

أما بالنسبة لكون إمرأته سارة عليها السلام قائمة فنستطيع ذكر ما يأتي:

كانت قائمة لأنـــها كانت تريد خدمة الضيوف. وحتى لو فرضنا وجود خدم عندها، إلا أنـــها فضلت القيام بخدمتهم بنفسها تعظيما للضيوف وتكريما لهم.

أو أن الأطوار الغريبة للضيوف جعلتها قلقة ووجلة فبقيت قائمة وهي تترقب وأن قلقها ووجلها إستمر حتى تقديم الضيوف البشرى لها، أو حتى إحساسها بالتغيير الذي طرأ عليها وعلى بدنـــها.

أو أنـــها أصبحت حاملاً منذ رؤيتها الملائكة بمعجزة من الله تعالى مثلما حملت مريم عليها السلام عندما رأت الملك أمامها. وإنـــها عندما أحست بذلك في نفسها إنقلب قلقها إلى ضحكة حيرة وفرح.

والإحتمال القوى أن سارة عليها السلام كانت آيسة، "أي في سن اليأس"، أي منقطعة عن الحيض لأنـــها كانت مسنة. ولم يكن من الممكن -حسب الأسباب السارية- لإمرأة منقطعة عن الحيض أن تحمل، لذا فيحتمل أن الحيض بدأ آنذاك وخرج الدم. والمرأة تشعر بذلك في الأكثر وهي قائمة وواقفة لذا ضحكت سارة عليها السلام عندما شعرت بذلك وعندما بشرتـــها الملائكة باسحق ويعقوب، لأن علامات البشرى تحققت. وفي اللغة العربية تأتي جملة "ضحكت المرأة" بمعنى "حاضت المرأة" وهذا يقوي هذه الملاحظة وهذا الإحتمال والله اعلم.

سورة يوسف

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: ٢٠]

يأتي "الزهد" بمعنى عدم الرغبة، وعدم الطلب وعدم إظهار الإهتمام والترك والنبذ، وكما يعلم الجميع فإن "الزاهد" هو الشخص المعرض عن الدنيا والمقبل على الآخرة. لذا فمعنى الآية ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ فهم كانوا زاهدين فيه ومستغنين عنه.

ولكن من الذي باع يوسف عليه السلام بثمن بخس دراهم معدودة؟ أأخوته أم أصحاب القافلة؟ لعدم تعيين الآية فالإحتمالان واردان. لذا نرى المفسرين مختلفين حول هذا الموضوع. فإن كان اخوته هم الذين قاموا ببيعه، فقد فعلوا ذلك لأنهم لم يعرفوا أنه سيكون شخصا هاما في المستقبل، بل سيكون نبيا كريما، لذا أرادوا التخلص منه بسرعة فشروه أي باعوه وهو إنسان حر وشخص لا يستطيع مال الدنيا بأسره أن يعدله، لقد باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وحملوا وزر هذا العمل وعاشوا ندمه كل تلك السنوات حتى يوم لقائه. وعندما اقترف إخوته هذا العمل لم يكونوا في وضع يستطيعون فيه التفكير الهادئ، فقد كانوا غارقين في الاضطراب وكانت الحيرة والتردد يلفهم، لذا ارادوا التخلص منه بسرعة فباعوه بثمن بخس دراهم معدودة. وهذه الصورة النفسية المرسومة هنا تشير إلى أن الذين باعوه كانوا أخوته وليس احدا غيرهم. لأن بيع العبيد كان مباحا، وبيع أصحاب القافلة للعبد

الذي اشتروه لكي يبيعوه في مصر ويتاجروا به كان أمرا طبيعيا، لذا لا تنطبق هذه الحالة النفسية مع أصحاب القافلة، ولكن هناك وجه إحتمال واحد فقط، وهو أن أصحاب القافلة عندما عثروا على يوسف في تلك البئر العجيبة عرفوا أن مثله لا يمكن أن يسقط هناك، فلا بد أن يكون ضحية حادثة غريبة، وهذا هو ما تفسره آية ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ (يوسف: ١٩) تفسره كلاما وصوتا وموسيقى. لذا كان عليهم أن يسرعوا في بيع هذا الغلام لكي يتفرغوا لأعمالهم الأخرى. وقد خشوا إن لم يفعلوا هذا وطلبوا وبحثوا القيمة الحقيقية للغلام أن يخسروا حتى ذلك الثمن البخس الذي باعوه به.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

[يوسف: ٢٤]

يرتكب في العادة خطأن عند تقديم مآل وتفسير هذه الآية:

١- يتم تقديم شخص صالح ومخلص في جميع أحواله وأعماله مثل يوسف عليه السلام وكأنه شخص أسير لمشاعره وأهوائه كأي شخص عادي. لذا نرى هؤلاء يحسبون عند تفسير هذه الآية بأن امرأة العزيز مالت إليه وأن يوسف عليه السلام مال إليها، ولكنه رأى برهان ربه. ولكن طراز حياته السابقة المتسمة بالصدق والصلاح، وكذلك المعنى الموجود في دوام الآية، أي صرف السؤء والفحشاء عنه وكونه من العباد المخلصين، حيث جاءت العبارة بصيغة اسم المفعول أي كونه شخصا مخلصا وواصلا إلى الإخلاص بالهبة الربانية وباللطف الرباني الذي لا خيار له فيه. لذا نفهم هذه الآية بهذا المعنى الذي يمنع الذهاب إلى أي ظن سلبي في حق هذا النبي الكريم.

٢- أما الذين يتناولون هذه الآية في صيغة معاكسة للفطرة الإنسانية وللطبيعة البشرية فيقولون بأن يوسف عليه السلام لم يكن يملك أي رغبة شهوية.

لا شك في وجود نواقص في طراز هذين الفكرين. فالأنبياء أيضاً بشر ولكن من زاوية كونهم معصومين ومصانين فهم فوق البشر من هذه الزاوية، أي من زاوية العصمة والصيانة. توجد الشهوات لديهم ولكنها شهوات تحت قيادة الإرادة النبوية الحازمة وقهر سيطرتها وعزمها. والآية هنا تريد تسجيل براءة يوسف عليه السلام، لذا فعلى الرغم من وجود الشهوة لديه فانه التجأ إلى الصيانة الإلهية والحفظ الإلهي واستعمل إرادته القوية فلم يمل إلى المرأة أبدا.

وعندما يرسم القرآن الكريم ما حدث هناك يستعمل تعبير ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وهو يدل صراحة على ميل المرأة نحوه، ولا يمكن تفسير هذا الميل بالدعابة أو بالامتحان. أي أن المجال كان مفتوحاً ليوسف عليه السلام حتى النهاية في ذلك المكان المقفل. ولكنه كان على الدوام ضمن برهان ربه... أي كان ضمن دائرة الإيمان والمعرفة والإتصال المخلص بالله مع مخافة منه ومهابة تلف كل كيانه، فقدم أفضل انموذج للإرادة القوية الصلبة. مع أن كل الظروف والشروط كانت مواتية وتغوي الجسد إلا أنه سد كل منافذ هذه الظروف بقوله ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ (يوسف: ٢٣). وسما فوق كل تلك الظروف وبددها وفتتها مظهراً عمقه الخاص اللائق بالعظماء. إن ما صانه في تلك اللحظة التي توافرت كل الشروط لجر الإنسان إلى هاوية الإثم لم يكن سوى عفته وعصمته وإرادته المتوجهة -بفكره المخلص- نحو الإنسان الكامل. ثم إنه كان إماماً مختاراً في موضوع طاعة الله ودعوة الناس إلى هذه الطاعة، ورجل دعوة ورسالة. والحقيقة أنه عندما حان الوقت المناسب شهدت زلَيخا بعفته وعصمته فقالت ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢).

وعندما يرسم القرآن الكريم ما حدث هناك يقول: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢)

كان يوسف عليه السلام مثالا للشاب الوسيم الممتلئ رجولة، كما كان يملك -مثل سائر الإنبياء الآخرين- جمالا نفسيا وجمالا داخليا أي كان جماله الخارجي متمما ومكملا وموازيا لجماله الداخلي العميق.

أما زليخا فلم تستطع الوصول إلى مستوى الناس الذين يحولون نظرهم من الفاني إلى الباقي، ومن الزائل إلى الخالد، بل غلبت من قبل أهوائها ورغباتها، وبقيت هذه الرغبة المشتعلة والحب المضطرم منحصرا في إطار الجسد فقط. فاذا أضفنا إلى هذا الجمال الداخلي والخارجي ليوسف عليه السلام،

نرى أن الخطأ الذي استمر منذ آدم عليه السلام تكرر وانخدع به ابن آدم مرة أخرى. وفي الآية أعلاه نرى أن إمرأة العزيز بعد أن رأت كيف قطّعت النسوه أيديهن، قالت مدافعة عن نفسها ومبررة ضعفها ولائمة هؤلاء النسوة اللواتي تناقلن فيما بينهن من أنـــها قد شغفت به حبا، فقالت ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (يوسف: ٣٢). وكانت حال هذه النسوه شاهدة على الجمال الخارجي الذي يأخذ بالألباب ليوسف عليه السلام وأول إعتراف نسائي. أما الإعتراف الثاني فكان من قبل إمرأة العزيز عندما قالت ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف: ٣٢). وهو أيضا شهادة على عفة هذا النبي ورصانته وعصمته وطهارته.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

[يوسف: ٣٥]

يمكن تفسير هذه الآية من عدة زوايا:

١- إن هذا الموضوع الذي تناقلته هؤلاء النسوة في ذلك اليوم قد شاع وانتشر في مصر. لذا كان من الضروري لقطع هذه الشائعات في ذلك المجتمع القيام باتهام يوسف عليه السلام وسجنه وإن كان بريئا، وذلك على حساب البراءة الظاهرية لامْرأة العزيز وقد اعتادت النظم القانونية في كل عهد أن تنحني أمام قوة الطبقة الحاكمة.

٢- لم يدافع يوسف عليه السلام عن نفسه عندما قاموا بسجنه. لأن أي دفاع عن نفسه كان يعني في الوقت نفسه رسم علامات استفهام كثيرة حول شرف الطرف المقابل وعفته. بينما على كل نبي أن يصون شرفه وعفة الطرف المقابل وكرامته من الهوان أيضا. أي بينما يصون نفسه من الزنا يصون لسانه من الغيبة. وقد فعل هذا فعلا. وبعد أن قضى في السجن من عمره خمساً إلى عشر سنوات كانت تلك الشائعات قد نسيت منذ مدة طويلة، كما لم يكن الجيل الجديد على علم بها. وعندما خرج يوسف عليه السلام من السجن لم يكن أي اثر من تلك الشائعات. وبتعبير آخر فضّل يوسف عليه السلام قضاء خمس أو عشر سنوات من عمره في السجن في سبيل الحفاظ على سمعة وعرض الطرف الآخر.

وفي النتيجة، وبعد عشر سنوات قال الذين اتهموا يوسف عليه السلام ظلما ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١) واعلنوا براءته. وكما يسلم به الجميع فإن هناك فرقا كبيرا جدا بين قيام الشخص بإعلان براءته وبين قيام الآخرين

بإعلان هذه البراءة، وكانت براءة يوسف عليه السلام تعلن من قبل الطرف الآخر. هذا الإعلان الذي كان أكثر تأثيرا ومفعولا بين الناس.

وعلى الرغم من توافر الأدلة على برآءة يوسف عليه السلام حسب تقييمهم من كون القميص قد قدّ من قبل أو من دبر، والنساء اللائي قطعن ايديهن وشهادتهن ببراءته فيما بعد... على الرغم من هذا فقد سجن هذا النبي الكريم كمثال وقدوة للمسجونين الأبرياء لكي يقاسي الآم السجن وينضج هناك، ثم يخرج من السجن الذي دخله كأسير وخادم حسب الظاهر وكحبيب للقلوب والأفكار وكحبيب للشعب المصري في الواقع. والحقيقة أنه في اللحظة التي دخل فيها السجن وفقد حريته كان قد دخل مرحلة حكم القلوب والنفوذ فيها. وبينما كانت الأهواء والأنانية تدفعه نحو ظلام السجن، كان يسير نحو بعث جديد لحياة الروح والقلب. وبجانب قيامه بتحقيق كماله الإنساني كان يقوم بنفث روح الحياة إلى مجتمع ميت، وإضاءة درب يمتد إلى موسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام وإلى فخر الكائنات ﷺ... اضاءة هذا الدرب من فوق اهرام الفراعنة. وقد تحقق كل هذا وبقي يوسف عليه السلام ذكرى جميلة لمن جاء من بعده.

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾

[يوسف: ٦٧]

يمكن تلخيص ما يخطر على البال من هذه التوصية التي وصاها يعقوب بنيه مايأتي:

يقول بعض المفسرين أن أبناء يعقوب عليه السلام كانوا جميلي المنظر، حسني الشكل والشمائل بهيي الطلعة ذوي قيافة تجلب الأنظار، وإنهم جلبوا أنظار الملك وأنظار الشعب المصري في زيارتهم الأولى. لذا كان ظهورهم أمام الناس للمرة الثانية قد يجلب لهم حسد البعض.

كما أن زيارتهم المتكررة لمصر وبفترات متقاربة وتأسيسهم علاقة حميمة مع يوسف عليه السلام كان من الممكن التأثير على مقام يوسف عليه السلام وعلى موقعه الرسمي. وكان من الممكن انطلاق شائعات من أمثال: "لماذا هذه المعاملة المتميزة لهؤلاء؟" أو "لقد جاء الأخوة العشرة مرة أخرى".

كما يمكن توقع أن يعقوب عليه السلام خاف أن يعاملوا بنيامين بالمعاملة التي عاملوا بها يوسف عليه السلام، فأراد أن يفرقهم اثنين اثنين لكي لا يجمعوا أمرهم في هذا الخصوص.

كان من الممكن لبني إسرائيل وهم يدخلون مصر القيام بأحياء مصر من الناحية المعنوية، لذا كان من الأفضل الإستناد إلى مبدأ السرية لتحقيق هذا الحلم وهذا الخيال. أي عدم التجمع وعدم الظهور كمجموعة، بل التفرق أفرادا.

طبعا كل هذا يعد إتخاذ التدابير في عالم الأسباب، وهذه وظيفة يجب مراعاتها في هذا العالم. ولكن اتخاذ التدابير ووضع الإستراتيجيات لا يعني

بالضرورة قيامه بمنع المصائب والبلايا التي تتخطى هذه التدابير وهذه الإستراتيجيات. لذا عبّر يعقوب عليه السلام عن هذا الأمر بانه مع اتخاذ التدابير والأسباب فهو يعتمد على الله تعالى مسبب الأسباب، لذا نراه يقول: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف: ٦٧).

ونحن نقول ما قاله يعقوب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الممتحنة: ٤-٥).

سورة الرعد

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد: ٣١]

كما بينت تفاسير هذه الآية فانه لو كان بالإمكان تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكسيرها، وتكليم الموتى بكتاب ما، فلن يكون هذا الكتاب التوراة أو الإنجيل أو الزبور بل يكون بالقرآن. وهكذا يوجه الله تعالى الأنظار إلى القرآن الكريم.

لو حدثت هذه الأمور كلها لكان معنى ذلك وقوع المعجزة. وأن عدم وقوع المعجزات وحدوثها وتحققها كما يطلبها الأنبياء عليهم السلام أحيانا من أجل هداية أقوامهم يعني أن هذه المعجزات التي تأتي لتصديق النبوات مرتبطة بالمشيئة الإلهية وحدها.

إن آية ﴿بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ تقوم بتوجيه الأفكار المنحرفة وتعلن وتحدد ممن يجب أن يُسأل ومن أين يُطلب وأن جميع القوى المادية والمعنوية وكل وسائل التاثير بيده تعالى وحده. وأنه متى ما شاء يستطيع أن يفعل ويحقق كل هذه الأمور المشار اليها. وأنه يستطيع هداية القلوب والوصول بها إلى شاطيء الإطمئنان حتى من دون إظهار المعجزات والامور الخارقة. وأنه لا يوجد أي شيء محال بالنسبة إليه. فلو شاء لسيّر الجبال، أو لدك الأرض وقطّعها، أو جعل الموتى الذين ماتوا منذ آلاف الأعوام وبليت أجسادهم يتكلمون. والحقيقة إن تأثير جميع هذه المعجزات -ان حصلت- لا يمكن

قياسه بالتأثير الذي يحدثه القرآن في القلوب التي شاء الله هدايتها. لذا فإن هذه الأمور العجيبة والمعجزات التي ترونـــها كبيرة تبقى شيئا ضئيلا بالنسبة إلى الثورة العالمية الشاملة التي يحدثها القرآن. وإن أردتم البحث والتنقيب عن سبب لهذه الحوادث والمعجزات التي تبدو أمام أنظاركم وخيالكم خارقة وعجيبة، فإن القرآن هو هذا السبب إن نظرنا إلى الموضوع من زاوية الأسباب العامة والجذرية. فلو شاء الله تعالى لسيّر الجبال وقطع الأرض ونفخ الحياة في الأموات وجعلها تتكلم. ولكن سبب نـــزول القرآن ليس لهذه الأمور. فحكمة تنـــزيل القرآن هي انشاء نمط جديد من هذا الإنسان الحالي الموجود، والنفوذ إلى القلوب التي لايمكن لغيره النفوذ فيها، وانشاء حاكمية الإيمان فيها، وإظهار وتعيين طرق الخلود والبقاء أمام الإنسان الفاني. ووعده بتحقيق جميع أمانيه وآماله، بل جعله يستطيع التفرج من نافذة قلبه ووجدانه على الخلود وعلى السعادة الخالدة وهو لم ينتقل بعد إلى العالم الآخر. إذن فأن الأهم معرفة هذه النواحي من حكمة تنـــزيل القرآن.

أجل إن التأثير المؤقت لتسيير الجبال وقذفها يمينا وشمالا، وتقطيع الأرض وتفتيتها وقيام عظام الموتى بالتكلم، لا يعد شيئا بجانب التأثير الدائمي والباقي للقرآن على الإنسان. بل يبقى تأثيرا ضئيلا وخافتا.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ (الحشر: ٢١)

سورة إبراهيم

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]

هناك أربعة مواضع تنتهي بمثل هذه الآية، وهي الآية الخامسة من سورة إبراهيم والآية الواحدة والثلاثون من سورة لقمان والآية التاسعة عشرة من سورة سبأ والآية الثالثة والثلاثون من سورة الشورى. ولو تم تدقيق سياق هذه الآيات سيلاحظ بأنها تأتي في أعقاب النعم التي أنعمها الله تعالى على الإنسان ثم يقال بأن هناك آيات حول وجود الله ووحدانيته لكل صبّار شكور، وهما صيغة مبالغة للصابر وللشاكر. وكما يقول القرآن فإن نعم الله على الإنسان كثيرة بحيث لو قمنا بعدها لا نستطيع أن نحصيها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ولكن الألفة والعادة التي يعيش في ظلها الإنسان المرتبط بجسده تجعله لا يحس بقدر هذه النعم وقيمتها إلا عندما تزول عنه. ولكن الأصل هو معرفة الإنسان بقيمة هذه النعم وهي بعد موجودة وقريبة، والتوجه إلى الله بكل جوارحه. وعندما تسلب هذه النعم منّا -بناء على حكم عديدة- تفرض عبوديتنا علينا الألتزام بالصبر الجميل في جميع الأحوال، وعلينا أن نقول على الدوام: "إن لطفك وقهرك يا ربنا سواء" وألا نتصرف أي تصرف سلبي ينافي عبوديتنا لله، وذلك تاييدا للحديث النبوي الشريف: "عَجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابَتهُ سرّاء شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابَتهُ ضرّاء صبَر فكان خيراً له".[1]

(١) مسلم، الزهد ٦٤؛ المسند للإمام أحمد، ٥/٢٤؛ سنن الدارمي الرقائق ٦١.

صحيح أن القرآن ذكر صيغة المبالغة للصابر والشاكر، ولكن لماذا؟

ذلك لأنه لا توجد هناك نعمة صغيرة من بين النعم التي أنعمها الله تعالى على الإنسان... فأي نعمة تعد صغيرة؟ آلأصابع الخمسة نعمة صغيرة؟ أم الغدد اللعابية الموجودة في أفواهنا وعملها؟ أم النعم المذكورة في هذه الآيات من تسيير السفن في البحار؟ أم الهواء؟... أم الماء... أم الحياة... أم الإيمان؟... أي منها؟... كلا... لا توجد هناك نعمة نستطيع أن نقول عليها إنـــها نعمة صغيرة. إذن يجب أن يكون هناك شكر كثير لهذه النعم. وعندما تذهب هذه النعم -لحكمة من حكم الابتلاء- يستوجب هذا الذهابُ صبرًا جميلاً. والنبي أيوب عليه السلام مثال أنموذجي للصبر الجميل. والأستاذ بديع الزمان النورسي يقول عنه إنه كان "بطل الصبر". فبعد أخذ جميع النعم الدنيوية منه لم تتغير حاله أو طوره أو توجهه نحو الله تعالى. ثم إن بطل الصبر والعرفان هذا الذي كان صبره نتيجة لإيمانه لم ينحرف إلى اليأس امام جميع المحن والشدائد التي تذهب بالصبر لأنه كان يدرك المعنى الحقيقي لأسباب المشقات والمحن، وكان يدرك جيدا أن للشرور جوانب خيّرة. لذا كان قلبه مفعما بالإيمان و لم ينـــزلق إلى القلق بل إلى الشكر والحمد في أوقات صبره على المحن.

ثم إنه يجب أداء الصبر والشكر باحساس وعاطفة، وهذا يتناسب مع قوة إيمان وعرفان الإنسان وضمن اطار وظيفته ومسؤوليته. فالنبي الذي خوطب بـــ ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـــورِ﴾ (إبراهيم: ٥) كان مأموراً بإخراج قومه فقط من الظلمات إلى النـــور. بينما خوطب نبينا ﷺ بـــ ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـــورِ﴾ (إبراهيم: ١) أي كلف بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وعاش ﷺ جو هذه المُهمّة.

سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[الحجر: ٢٤]

بينما يشير علم المستقدمين والمستأخرين إلى القدر الإلهي، يشير من ناحية أخرى إلى التوحيد أيضا. ذلك لأن مَن خلَق الماضي هو الذي يخلق -أو سيخلق- المستقبل. ثم قد يتبادر إلى الذهن الملاحظات الآتية في صدد علم المستقدمين والمستأخرين:

نحن نعلم المستقدمين من الآتين إلى هذه الدنيا مثلا الآتين في زمن آدم عليه السلام، ونعلم الآتين من بعده.

ونعلم المستقدمين منكم من زاوية الدخول في الإسلام والمستأخرين منكم.

ونعلم المتقدمين منكم في صفوف الصلاة والمتأخرين.

ونعلم أوائل حياتكم وأواخرها، أي ذرات أجسادكم وجزيئاتها وأحوالكم الحالية، ثم كيف تتحولون في القبر إلى عظام نخرة.

وإذا عبرنا عن هذا بتعبير أشمل وأوسع نقول: اننا نعلم أصحاب الصفوف المتقدمة في الإيمان والإسلام والإحسان وأصحاب الصفوف المتأخرة والمتعثرين في هذه الأمور. وهناك من دخل في تفصيل وفروع هذا الأمر حتى وصل إلى القول بالمبكرين في القدوم إلى الجامع -أي اصحاب الصفوف الأولى في الصلاة- والمتأخرين في القدوم إليه من أصحاب الصفوف المتأخرة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]

تعفن الطين الذي خلق منه الإنسان قد يكون بسبب البكتريات الموجودة فيه كانت البداية طينا لزجا متعفناً، ثم تقلب من حال إلى حال ومن شكل إلى شكل بمرور الزمن حتى تحول من "حمأ مسنون" إلى فخار مطبوخ يرن إذا نقرت عليه، أي تحول إلى "صلصال" وقد يكون العكس صحيحاً أيضاً ولكن النتيجة لا تتغير كثيراً. فمن جهة هناك طين معرض للتبدل وللتغير نتيجة وجود أحياء مجهرية فيه، أي كأنه خليط بروتيني ومن جهة أخرى طين جاف يابس لا توجد فيه أي أحياء مجهرية. وحتى توجه العلم الإلهي وقدرته وإرادته لتفريغ هذا الطين في قالب وإعطائه صورة إنسانية وتوجيه نفخة إلهية إليه كمعجزة خلق لكي يكون هذا الإنسان محوراً للأسماء وللصفات الإلهية... حتى ذلك الحين بقي الإنسان في برزخ بين الماء والطين بعيداً عن الحياة.

ثم صار هذا الطين إنسانا... إنساناً لا يستطيع أفراد منه أن يتجاوزوا الملائكة، ولكنه إلى جانب هذا حمل معه قابلية التعفن حتى اليوم، وإمكانية الخلوّ من أي خير. ومع أنه يحمل إمكانية الخير بنسبة علاقته بالصفات وبالأسماء الحسنى الإلهية، فإنه في الأدوار التي يخلو من هذه الصفات، يعكس جميع خصائص نشأته الأولى من حمأ مسنون.

أجل إن الإنسان إن لم يسع لتحقيق الهدف المنشود من خلقه، ولم يبذل جهده في هذا السبيل لكي يعلو إلى أعلى عليين ولم يظهر هذه القابلية فإنه لن يستطيع التخلص من العفونة ومن التعفن أبداً.

سورة النحل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠]

هذه الآية الكريمة آية جامعة تحتوي على ستة اسس منها اسس ايجابية، وأخرى سلبية.

العدالة نظام حيوي جدا في الدين، وعدها بعضهم أحد الأسس الأربعة المهمة في الدين. وهذا المفهوم الذي يرد في القرآن وفي السنة الصحيحة تحت تعبير العبودية واحيانا العدالة مفهوم عام يرد اليه الكثير من الأشياء. فمثلا يمكن ارجاع جميع وجوه الخير المذكورة في هذه الآية من الإحسان وإيتاء ذي القربى إلى العدالة. علما بأن العدالة بمعنى العبودية إن لم تكن موجودة في الإنسان ومستقرة في المجتمع استقرارا صحيحا فلا يمكن توقع وجوه الخير الأخرى لا في الإنسان ولا في المجتمع. فلا إحسان دون عدالة، ولا يمكن إسداء الخير لذي القربى من دونها، ولاسيما إن قرأنا التعريف المدهش للإحسان الوارد في الحديث النبوي الشريف "أنْ تَعبدَ الله كأنَّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فهو يراك".[1]

(١) البخاري، تفسير القرآن ٣١؛ الترمذي، الإيمان ٤؛ ابن ماجه، المقدمة ٩؛ مسلم، الإيمان ٥٧؛ أبو داود، السنة ١٦.

أي فالإحسان أن تكون عبداً لله كأنك تراه. ولكن هذا الشعور والتفكير والتصور يجب أن يكون مبنيا على إيمان متين وراسخ، وأن يتعمق هذا الإيمان بالاسس الإسلامية لكي يستطيع شعور الإحسان إعطاء ما يؤمل وما ينتظر منه.

إن إيتاء ذي القربى، وبشكل اشمل عمل المعروف للناس جميعا، يعني انتشار مبدأ الإحسان وفلسفته. وإذا قمنا بتحليل هذه الآية من هذه الزاوية نرى أن العدالة هي منبع الاحسان وقاعدته، والإحسان هو منبع الخير والبر وقاعدته.

وإذا انتقلنا إلى الأسس السلبية نرى أن النهي الأول هو عن الفحشاء.

وقد يكون السبب في هذا أن الفحشاء هي بداية جميع المنكرات عند الإنسان كفرد وعند المجتمع ككل، لذا تم تقديمه. فكما يعلم الجميع أن أي مجتمع تسود فيه الفحشاء تبدأ جميع المنكرات الأخرى بالانتشار فيه واحدة تلو الأخرى فينحرف هذا المجتمع انحرافا كبيرا. لذا لا يمكن التقليل من خطورتها في أي وقت من الأوقات.

ومعنى المنكر هو إتيان ماحرمه الله تعالى واقترافه بشكل علني. وهو ياتي بمعنى العصيان على منظومة الحقائق الكونيه والتمرد عليها وهو شيء مردود في كل دين وفي كل أمة وملة.

أما البغي فيعني تجاوز الحد. وتظهر هذه الخصلة السيئة في الحياة الفردية وفي الحياة الاجتماعية أيضاً في اشكال وصور مختلفة من ظلم الإنسان لنفسه إلى عصيان الوالدين، إلى رفع راية العصيان ضد الدولة والاخلال بطمأنينة المجتمع، إلى انكار الله تعالى والجحود به.

وكما رأينا في موضوع العدل والإحسان وايتاء ذي القربى والبر فإن الفحشاء هي اساس ومنبع المنكر، والمنكر هو اساس البغي ومنبعه.

ولكن المذهب الحنفي يرى أن الواو هنا يفيد الجمع المطلق، والعطف

بحرف الواو في الآية الكريمة للصفات الإيجابية وكذلك للصفات السلبية، لذا يجوز أن الترتيب والتقديم والتأخير قد لا يكون واردا هنا. بينما يرى المذهب الشافعي أن الواو هنا يفيد الترتيب أيضا، ومن هذه الزاوية فإن تسلسل السبب والنتيجة -الذي ذكرناه آنفا- قد يكون واردا ومثل هذا الارتباط قد يكون موجودا.

والخلاصة أن هذه الآية هي أجمع آية في القرآن الكريم حول الخير والشر كما قال ابن مسعود ﷺ.[1] وهي تتضمن معاني يمكن شرحها في مجلدات.

(١) جامع البيان للطبري، في تفسير هذه الآية.

سورة الإسراء

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣]

هذه الآية تذكّر الإنسان بصورة المحكوم عليه بالإعدام الذي يعلق على رقبته فرمان الإعدام وسببه وهو يساق إلى حبل المشنقة. ونستطيع ذكر بعض المسائل في تفسير هذه الآية:

الطائر المذكور هو عمل الإنسان وهو -كما ورد في الأحاديث النبوية- يظهر أمام الإنسان بشكل إنسان حسن الوجه إن كانت أعماله حسنة وبشكل إنسان قبيح الوجه إن كانت أعماله قبيحة.

إن أراد الله تعالى فضْح عبدٍ من عباده، أي أراد عقابه بسبب ما اقترفه من الآثام حسب ما تقتضيه العدالة، علق كتاب اعماله في عنقه وأفشى سره. أما إن أراد الصفح عن عبد من عباده ستره وستر ذنوبه ولم يظهرها لأحد.

وقد يقال -من وجه آخر- إن هذا الطائر المعلق في عنق الإنسان هو ضميره الذي لا يفارقه أبدا، والذي يحسه في اعماقه على الدوام والذي يظهر نفسه -كما يرد في التعبير الشائع- بـ "راحة الضمير" أو "عذاب الضمير" حسب ما يعمله من خير أو من شر. والخلاصة فإن قدر الإنسان المحاك حول ارادته النسبية والجزئية، وحظه وارتباط روحه بجسده كإرتباط الظل ببدنه... كله معلق في عنقه ومحمل على عاتقه، ويكون مصدر انشراح

وفرح له، أو مصدر عذاب وألم لا يفارقه... لا يفارقه ويظهر يوم القيامة كسجل وككتاب يوضع أمامه ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤). أما من يقرأ نفسه كل يوم ويحاسبها فانه سيكون آمنا مطمئنا يوم القيامة وهو يتوجه نحو الجنة ونحو رضوان الله تعالى لانه كان يحاسب نفسه في الدنيا. أما من فرط في محاسبة نفسه في الدنيا فانه سينذهل يوم القيامة ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقّة: ٢٥-٢٦).